الشباب وظاهرة الأنومى
قراءة في صراع الهوية القومية والعالمية

اعداد

الأستاذ الدكتور
طلعت مصطفى السروجي
عميد كلية الخدمة الاجتماعية الأسبق
جامعة حلوان

الأستاذة الدكتورة
سامية عبد الرحمن همام
أستاذ خدمة الفرد كلية الخدمة الاجتماعية
جامعة حلوان

إن النظام العالمى الجديد يعمل على إفراغ الهوية الجمعية من كل محتوى ويدفع إلى التفتيت والتشتيت ليربط الشباب بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة. والنتيجة استمرار إعادة إنتاج متواصلة ومتعاظمة للثنائية، ثنائية التقليدي والعصري، ثنائية الأصالة والمعاصرة فى الثقافة والسلوك.

إن ثقافة الاختراق تقوم على جملة أوهام هدفها: "التطبيع" مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري الثقافي، وتتولى القيام بعملية تسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، إنه سلاح خطير يكرس الثنائية والانشطار فى الهوية الوطنية القومية، ليس الآن فقط بل وعلى مدى الأجيال الصاعدة والقادمة، ثقافة جديدة تماما لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلاً.

إن الظاهر أصبح أهم من الباطن وأصبحت مكارم الاخلاق بتغيير الثياب وليس بتغيير السلوك.... وجاء الانفتاح لنصدر أخلاقنا ونستورد أخلاق الغير.

إن اختلال الأنومي أو اللا معيارية تعني التفسخ واللا قانون واللا قاعدية وتنم جميعها عن التركيب الذي يؤدي إلى حالة اللا نظام أو اللا قانون و"انعدام الثقة " أو " حالة البلبلة والشك " وإلى افتقار مفهوم السلوك إلى القاعدة والمعيار التي يمكن بها وبناء عليها قياس أو تميز السلوك السوي عن السلوك غير سوي. والمعتقدات في حالة انتشار حالة اللا معيارية تصاب القيم والأعراف والقوانين في المجتمع بالضعف والوهن وتفتقد بذلك القاعدة التي تعتمد عليها بسبب عدم القبول أو عدم جدواها والقناعة بها وتعلق الشباب بالثقافات الوافدة ثقافة الحضارة السائدة والتقليد والمحاكاة بلاوعي، وبالتالي يحدث قلق وتوتر لدى الشباب ومن ثم ارتباكه أو عزلته عن المجتمع. فضلا عن الافتقار إلى معايير واضحة لتحديد الفروق بين السلوك الاجتماعي المشروع وغير المشروع. وهكذا اختلطت الثورة الكونية بالفوضى وأصبحت مهمة إعادة القيم لتحكم السلوك الاجتماعي مهمة بالغة الصعوبة.

إن التراجع القيمي والانهيار الأخلاقي تبدو ملامحه واضحة في الشارع, فوضي وانحراف قيمى وسلوكي, انحسار للقيم النبيلة وانتشار لمظاهر الفساد والرشوة, مواطنون يضربون عرض الحائط بكل قيم العائلة الأصيلة وبكل القواعد والقوانين, وآخرون يتصرفون بعدوانية مجانية غير مبررة.

إن أرسطو ألف كتابا في كل علم لكنه ألف ثلاثة كتب في علم الأخلاق وقد ضاع ثلثا مؤلفات أرسطو مثلما ضاعت الأخلاق، وصار المهم الآن والملح هو عودة أخلاقنا الضائعة، قبل

عودة أموالنا الضائعة فلا يهدم الدولة انهيار مؤسساتها ولكن انهيار أخلاقنا، لأن الانفلات الأخلاقي أخطر من الانفلات الأمني.

إن الواقع يعكس أن المسئولية الأخلاقية أشمل وأوسع من المسئولية القانونية، والأولي ثابتة وتخضع لسلطة داخلية وهي الضميروالضبط الذاتى الداخلي، والثانية متغيرة وتخضع لسلطة خارجية وهي مؤسسات العدالة. لقد انشغلنا عن تربية الأبناء، وأرضينا السلطة الخارجية وأهملنا السلطة الداخلية، واعتلي الجهلاء أكتاف العلماء وغابت الأخلاق التراثية الوطنية وكأن التقليدى الثقافى بطولة لدى الشباب ومعيارا للتفاخر الأجوف بالتأكيد.

إن هذه الحقبة الزمنية يمكن وصفها بأنها حقبة التمرد المطلق بكل أشكاله، حالة التمرد على حالة الثقافة الوطنية وحالة انهيار القيم القومية وحالة اختلال الأنومي أو اللامعيارية.

إطلالة عامة:

يتفاعل الشباب مع بيئة ليست محلية محدودة ولكن مع بيئة عالمية تتسم بالتغيرات السريعة المذهلة وعالم مضطرب يتسم بالغزو الثقافى المتدفق بمخالبه وتتصارع فيه الحضارات والقوميات صراعا ثقافيا متوحشا مما ينعكس سلبا على البناءات الأيديولوجية واختلالها فى المجتمعات والتعددية الثقافية وغموض الهوية القومية وغياب القاعدة أوالمعيار المجتمعى، وفى هذا الاطار العالمى سريع التدفق والتغير اللامحسوب المذهل الذى فاق كل التوقعات كانت طموحات الشباب المشروعة وغير المشروعة التى قد لاتتوافق مع قدراتهم مما عززمن الاختلال الأنومي أو اللامعيارية لديهم وتعني اللا قانون واللاقاعدية وتنم جميعها عن خلل في التركيب الذي يؤدي إلى حالة اللانظام أو اللاقانون وإلى افتقار مفهوم السلوك إلى القاعدة والمعيار التي يمكن بها وبناء عليها قياس أو تميز السلوك السوي عن السلوك غير السوي . والمعتقدات في حالة انتشار حالة اللامعيارية يصاب البناء الثقافى والقيم والأعراف والقوانين والضبط الاجتماعى غير الرسمى وصعوبة تحقيق الاتفاق فى المعتقدات وتفكك عناصر التضامن وغياب الوعي في المجتمع بالضعف والوهن وتفتقد بذلك القاعدة التي تعتمد عليها بسبب عدم القبول أو عدم جدواها والقناعة بها، وبالتالي يحدث قلق وتوتر لدى الشباب ومن ثم ارتباكه أو عزلته عن المجتمع. وفي مثل هذه الظروف والأوضاع يصل المجتمع إلى حالة من الفوضى واللانظام واللامعيارية واللاقاعدية، إنها ظاهرة إنهيار القيم بكل أشكاله.

وظهرلدى الشباب كثير من المظاهر والسلوكيات التى تعزز إختلال الأنومى منها ظهور شعار جديد غير مسبوق، وهو ضرورة تمكين الشباب، وقد ترجمه الناشطون السياسيون الجدد بمعنى ضرورة إقصاء الأجيال السابقة كافة، وأن يشغلوا هم وظائف الإدارة الكبرى إنها طموحات وتطلعات متنامية أكبر من القدرات وتعكس السرعة المذهلة فى تحقيق الطموحات حتى إذا لم

تتوافر الوسائل والقدرات الضرورية واللازمة لتحقيقها، وكأنهاعواصف للتمرد على الأوضاع القائمة، إنها حقبة التمرد المطلق بكل أشكاله وصوره.

وانتقلت عواصف التمرد إلى الجامعات، حيث اختلّت العلاقة اختلالاً جسيماً بين الطلبة والأساتذة، وإلى الشركات والمصانع حيث اعتدى الموظفون والعمال على المديرين لإجبارهم على الإذعان لمطالبهم المالية، وسادت في المجتمع ظاهرة انهيار القيم، التي يطلق عليها الأنومي، أي الافتقار إلى معايير واضحة لتحديد الفروق بين السلوك الاجتماعي المشروع وغير المشروع. وهكذا اختلطت الثورة بالفوضى وأصبحت مهمة إعادة القيم لتحكم السلوك الاجتماعي مهمة بالغة الصعوبة فى إطار تغيرات كونية مذهلة وغزو ثقافى غاشم لايرحم الثقافات القومية نتيجة صراع ثقافى غير متكافئ، وإنشطار وتعددية ثقافية غير متوقعة.

ويُستخدَم الاصطلاح أحياناً كمرادف لمصطلح الاغتراب حيث يصبح الفرد بلا جذور فيفقد الاتجاه، ويسبب له هذا اختلالاً نفسياً، وقد عدَّل روبرت مرتون معنى كلمة أنومي، فبدلاً من الحديث عن غياب المعيارية، تحدَّث عن الصراع بين المعايير، أي أن حالة الأنومي تظهر حينما يواجه المرء أهدافاً غير متسقة في حياته، أو حينما يُطرَح عليه حلم مستحيل وهو هدف نهائي دون توفير الوسائل التي تساعده من تحقيق الهدف، أو حينما تتناقض الأهداف الاجتماعية مع المقاييس السلوكية التي تساعد على تحقيقها. ففي الولايات المتحدة . على سبيل المثال . يؤكد الحلم الأمريكي أن تحقيق الثروة هو الهدف من الحياة، وهو ما عُبِّر عنه بمقولة "من الأسمال إلى الثروة"، ولكن الوسائل المتاحة لتحقيق هذا الهدف محدودة جداً والفرد الأمريكي لا يتمكن من تحقيق حلمه من خلال القنوات الشرعية مهما بذل من تضحيات. ولذا، تبدأ حالة الأنومي في الظهور ويلجأ الفرد لوسائل غير مشروعة مثل الانحراف والجريمة وتعاطي المخدرات، إما لتحقيق الهدف المستحيل أو لتحقيق التوازن الذي فقده الإنسان نتيجة الحلم المستحيل والهدف الغائب.

ويشارللامعيارية أيضاً بالتفسخ وهي ترجمة للكلمة الفرنسية أو الإنجليزية أنومي Anomie ، وهي من كلمة يونانية تعني بلا قانون. وتعني فقدان المعايير وغياب أي اتفاق جوهري أو إجماع بشأنها في المجتمع الحديث الذي تتآكل فيه القيم والتقاليد. وكان دوركايم أول من طوَّر المصطلح فبيَّن أن حالة اللامعيارية تنشأ في حالة انتقال المجتمع من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي قبل اكتمال مؤسسات المجتمع العضوي. ويذهب دوركايم إلى أن السعادة البشرية والنظام الاجتماعي يعتمدان على درجة من التنظيم الاجتماعي من قبَل المجتمع وعلى الإجماع، وبدونهما تسقط الطبيعة البشرية فريسة "لمرض التطلع اللامتناهي" ويفشل المجتمع في تحقيق الطمأنينة لأعضائه. ومما يزيد الأمر سوءاً أن المؤسسات الوسيطة التي تُوجَد في المجتمعات

التقليدية تختفي تماماً في العصر الحديث، الأمر الذي يترك الفرد وحيداً في مواجهة حالة اللامعيارية هذه، وأحد أشكال تزايد معدلات اللامعيارية هو تزايد معدلات الانتحار.

ولو عاش دوركايم حتى هذه الحقبة لبدل زيادة معدلات الانتحار بزيادة معدلات الفوضى والانحراف الأخلاقى كعائد غير متوقع للتغيرات kوالثورة الكونية، وأن سبب تزايد اللامعيارية والأنومى التدفق المتلاحق للتغيرات الكونية وايقاعها السريع غير المعهود وتدفق الغزو الثقافى المتنامى لثقافات مغايرة أهتز معها البناء الاجتماعى فى المجتمع بعناصره المختلفة، وتعددت أشكال الأنومى واللامعيارية لأشكال وصور الفوضى واللامبالاة والطموحات غير المشروعة ورفض الضبط الرسمى وغير الرسمى وتقبل الثقافات الوافدة ورفض الثقافة الوطنية ورموزها المجتمعية، إنه واقع كونى يعزز من الشيئية واللامعنى والأنومى خاصة لدى الشباب الذى يتسم بالحلم والتطلعات والأهداف المتنامية.

الشباب من هم؟

يتباين مفهوم الشباب بين المجتمعات حيث يجمع المفهوم محددات عمرية وبيولوجية وعقلية وبدنية، غير أن المفهوم المقبول اجتماعيا هو المرحلة العمرية المرتبطة بالقدرةعلى العطاء والمشاركة الفاعلة فى عمليات التنمية، والمرحلة العمرية التى يكتمل فيها النضج العقلى والبدنى.والشباب هي الفترة العمرية ما بين الطفولة والبلوغ، وتوصف بأنها فترة من النمو البدني والنفسي من سن البلوغ إلى مرحلة النضج والبلوغ المبكر. وتختلف المصطلحات لتحديد الفترة العمرية المحددة التي تشكل الشباب.فقد لايتوافق نضج الأفراد الفعلى مع عمرهم الزمني، بسبب وجود الأفراد غير الناضجين في جميع الأعمار، فضلا عن اختلاف النضج البدنى باختلاف التضاريس والمنخ بين المجتمعات فالمجتمعات الحارة أسرع في النضج من غيرها، بالإضافة لاختلاف النضج النفسى بتباين المناخ الأسرى والمجتمعى بين الأفراد.

ويختلف العمر الذي يعتبر الشخص أصبح شابا، وبالتالي مؤهلا لكي يعامل معاملة محددة في ظل القانون والمجتمع في جميع أنحاء العالم.

المحددات العمرية للشباب:

تختلف المحددات العمرية طبقا لماسبق بين المجتمعات المختلفة حيث نجد مثلا:

تحدد المتحدة "الشباب... أولئك الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٤ عاما".

بينما البنك الدولى الوقت في حياة الفرد ما بين الطفولة والبلوغ. ومصطلح "الشباب" بصفة عامة يرمز إلى أولئك الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٥" إلى ٢٥.عاما "

للشباب مع "الشباب (الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥-٢٩عاما.

مدرسة مقاطعة ويلسون الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ٢١ .

البيوت البديلة للشباب، الشاب، الفرد في الفترة من ١٣ إلى ١٩ سنة من العمر.

الشباب والتباين بين الطموحات والقدرات:

إن المدقق بوعي يمكن أن يحدد أن قضايا الشباب تكمن دائما فى التباين الصارخ بين الطموحات والقدرات، والطموحات صنفان مشروعة وواقعية وأخرى غير مشروعة وغير واقعية ومن حق الشباب وترتبط بالمرحلة العمرية من ناحية ولعبت الميديا والتغيرات العالمية الجديدة دورا جوهريا فى الدفع بالطموحات لمستويات أعلى من ناحية ثانية وميل الشباب للتقليد والمحاكاة من ناحية ثالثة، حتى أضحت أحلاما لدى الشباب –الذي من حقه أن يحلم–.

والقدرات قد تكون ظاهرة معروفة وأخرى خفية كامنة غير معروفة ويتميز الشباب بالقدرات البدنية والعقلية والنفسية غير أن هذه القدرات متباينة وترتبط ارتباطا كليا بالاعداد العلمى المعرفى والخبرات ومراحل الاعداد والتنشئة الاجتماعية للشباب ، ولذا فان غياب فعالية مؤسسات التنشئة الاجتماعية والاعداد المعرفى وتواصل الأجيال ونقل الخبرات وتراكمها تؤثر سلبا وبصورة جوهرية فى قدرات الشباب باختلاف أنواع ومسميات هذه القدرات ويصبح الشباب غير مؤهل لتحقيق الطموحات التى تتحول منطقيا لأحلام ومن ثم قد يفكر الشباب فى ايجاد أساليب بديلة غير مقبولة اجتماعيا لتحقيق طموحاته غير الواقعية التى تفوق كثيرا قدراته، ومن ثم تظهر المشكلات ويزداد حدة مشكلة الأنومى لديهم.

إن الطموحات المشروعة الواقعية للشباب هى تلك التى تتوافق مع قدراتهم وامكاناتهم المختلفة، ولذا فتقريب الفجوة بين الطموحات والقدرات من المهام الأساسية للخدمة الاجتماعية فى الممارسة مع فئة الشباب ليس لمواجهة مشكلاتهمفقط ولكن أيضا للوقاية من المشكلات والاستفادة القصوى من مشاركات الشباب فى عمليات التنمية فى المجتمع.

قراءة فى ظاهرة الأنومى:

يرجع أصل كلمة أنوميا إلى الكلمة الإغريقية Anomie التي تعني " انعدام القانون " أو " انعدام الثقة " أو " حالة البلبلة والشك " التي يسببها غياب سلطة القانون. أما في العصر الحديث فقد كان رائد المدرسة الاجتماعية الغربية " إميل دوركايم أول من وضع هذا المصطلح عام ١٨٩٣ في كتابه"تقسيم العمل"ثم طوره من بعده "روبرت ميرتون" عام ١٩٥٧ في سياق النظريات المفسرة للظواهر الاجرامية، فمصطلح الأنوميا يعني بشكل عام "غياب المعايير", وهو يرتبط مباشرة بالنظم المعيارية التي يرتكز عليها مختلف مظاهر التنظيم الاجتماعي, التي تسير مجتمعا بشريا معينا, والتي تتجسد في مختلف المؤسسات أو الهيئات التي ترتبط مباشرة بذلك المجتمع .
وأي خلل قد يصيب هذه المنظومة المشكلة للمعايير, يؤدي مباشرة إلى اختلال البناء الاجتماعي ككل ومن ثم ظهور الأنوميا, إن ظاهرة الأنومي أو اللامعيارية هي عائد متوقع لفشل المعايير

الاجتماعية في ضبط تفاعلات وأنشطة أفراد المجتمع من خلال معايير محدة مقبولة ومتوافق عليها, وتعجز الأوضاع والظروف المجتمعية عن توجيه الأفراد لمواقعهم المناسبة في المجتمع, فتنشأ عنها صعوبات التكيف والتوافق الاجتماعي, وهذا بدوره يؤدي إلى الإحباط وعدم الرضا عن المنظومة الاجتماعية, ومن ثم يكون بداية لتطور تدريجي – تراكمي لمفاهيم جديدة تحمل فى طياتها مضامين " صراعية أو ثأرية ", تؤدي في النهاية إلى انتشار الفوضى من خلال سعي بل تسابق الأفراد إلى تحقيق أهدافهم المشروعة بطرق غير مشروعة حيث تعجز مؤسسات المجتمع عن تنظيم أدوارهم وهو ما يؤدي إلى الانحراف والتمرد على القانون والأوضاع , الذي يأخذ عادة طابع التبرير لتلك السلوكيات المنحرفة من وجهات نظر شخصية ذاتية, بعيدة عن النضج الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي للفرد الأنومي, الذي يُعبر في هذا النموذج النظري عن شذوذ فكري وسلوكي, يتكون ويظهرعادة نتيجة للانشطار والتفكك والثنائية والخلل في البناء الاجتماعي أو الثقافي المهيمن وليس بسبب الفرد في حد ذاته.

وتنشأ وتتطور ظاهرة الأنوميا أو أزمة غياب المعايير, في عدة حالات ترتبط بالتغيرات السريعة الجذرية والحادة فى أى مجتمع سياسيا وإجتماعيا وثقافيا واقتصاديا, كتطورات حادة غير محسوبة أو متوقعة وقد تكون مذهلة , إذ يظهر ذلك في حالات الحروب الأهلية التي تنهار فيها سلطة الدولة المركزية, أو الأزمات الاقتصادية كحالات الكساد أو المراحل الانتقالية السريعة وغير المضبوطة كالانتقال من نظم سياسية واقتصادية معينة إلى أخرى جديدة, بحيث تسبب مثل هذه الحالات حالة من عدم التكيف والفوضى وغياب الثقة ويزداد الاعتراض والمقاومة, حيث يجد الفرد نفسه في هذه الوضعية الصراعية عاجزا عن التوافق أو الإدماج الجماعي والانسجام مع الآخرين وغياب التوافق الجمعى للمفاهيم والتصورات الجديدة التي تنشأ عن تلك الحالات, بسبب البلبلة وعدم اليقين والشك.

ويوجد فى السياق العالمى الكثير من الأمثلة التاريخية التى تبين الخطر الذي تمثله مثل هذه الظروف والأوضاع المتغيرة على التضامن واستقرار المجتمع، فالكساد الاقتصادي العظيم الذي ضرب الولايات المتحدة عام ١٩٢٩ مثلا، نتجت عنه أزمة معايير وغياب لسلطة القانون، تسببت في انتشار موجة رهيبة للجريمة المنظمة، عصفت بالولايات المتحدة قرابة العقدين من الزمن.

وذكر دوركهايم فى مناقشته وتحليله للأسباب الانتحار أن المجتمع يسوده الانحلال والتفكك أو اللامعيارية حيث تختفي القيم أو تتعارض وتتناقض ويرتفع مستوى القلق وتنتشر الفوضى.

واستطاع دوركهايم تطوير فكرته وكانت نظريته عن الانتحار تركز على إمكانية عزو التفاوتات في معدلات الانتحار الى التفاوت في مستوى التضامن الاجتماعي، فالمستويات المنخفضة من التضامن الاجتماعي وكذلك المستويات القوية بشكل مفرط للتضامن الاجتماعي من المتوقع أن

تسبب ارتفاعا لمعدلات الانتحار، وميز دوركهايم هنا بين التكامل والتنظيم باعتبارهما بعدين للتضامن الاجتماعي، وكان يعني بالتكامل قوة الصلة التي تربط الفرد بالمجموعات الاجتماعية، وكان يقيسه على تدرج يبدأ بالانانية و ينتهي بالإيثارية، ومن جهة اخرى كان يقصد بالتنظيم الدرجة التي تستطيع من خلالها قواعد ومعايير المجموعة ومبادئها أن تنظم رغبات وتطلعات أفرادها، وكان دوركهايم يقيس ذلك على تدرج يبدأ من اللامعيارية وينتهي بالجبرية.

وبحث روبرت مرتون ذلك بشكل أكثر عمقا من خلال التمييز بين عدد من الأشكال المختلفة التي يمكن أن تتخذها اللا معيارية، وعندما يفتقد الأفراد الالتزام القوي بالمعايير الثقافية، ويكونون أكثر تأثرا بمصالحهم الذاتية، فلا يمكن أن يتحقق التوافق والانسجام الاجتماعى، ويبدوا ذلك عندما تكون للفرص المتاحة للناس من الصعب أو المستحيل عليهم تحقيق ما يصبون اليه من غايات بوسائل مشروعة، فقد يرغبون في ما يراه أفراد المجتمع الآخرون أهدافا تستحق السعي لها، الا أن افتقادهم الامكانات يحول بينهم وبين تحقيق الأهداف عبر الالتزام بالقواعد الاجتماعية والتي لا يلتزمون بها التزاما قويا، واتفق مرتون مع دوركهايم في هذه الحالة الأخيرة من اللامعيارية كسمة خاصة للمجتمعات الحديثة ، وأن الأفراد الى حد ما ضعفاء في التوافق الاجتماعي مع الوسائل المقبولة مجتمعيا لتحقيق الأهداف، وقد ميز مرتون بين أربع استجابات ممكنه لهذا النوع من اللامعيارية .

ومن النماذج على هذا النوع الأشخاص البيروقراطيون الذين يلتزمون بشكل صارم القواعد والاجراءات دون مراعاة لعوائدها وآثارها، بينما الانسحابية فتكون رفض لكل من الوسائل المفروضة والغايات نفسها، وتحدث الاستجابة الأخيرة وهي التمرد عندما يرفض الناس الغايات والوسائل المشروعة معا، ويستبدلونها بوسائل وبدائل أخرى تفرض تحديا للأفكار التقليدية ، وقد تتناقض معها تماما، وتتناقض هنا أفكار مرتون مع الواقع العالمى المتغير وخاصة تأثر فئة الشباب حيث يتوافقون مع الغايات ويتباينون فى التوافق مع الوسائل المشروعة لتحقيق هذه الغايات ولايستبدلونها بالأفكار التقليدية حيث تمثل لديهم عقبة غير مرغوبة لتحقيق غاياتهم وإن لم تكن من أسباب التمرد وعدم التوافق والتكيف لدى الشباب ، بينما اكتشف دوركهايم ارتباط المستويات المرتفعة من اللامعيارية بالمستويات المرتفعة من الانتحار والصراع الطبقي، فى حين ربطه مرتون بالمستويات المرتفعة من الابتكار والطقوسية والانسحابية والتمرد، حيث يرى أن الانحراف يحدث حينما يحدث تعارض بين الوسائل التي يحددها البناء الاجتماعي والأهداف التي يحددها البناء الثقافي للمجتمع.

الشباب وظاهرة الأنومى:

وبالرغم من أن عقد التسعينات قد مضى و أن الاستتباب النسبي للأمن أصبح واقعا, إلا أنه لا يمكن أن نجد اليوم شابا واحدا يمكن أن يجادل في مخلفات سنوات الفوضى التي مر بها البلد, و السبب في ذلك هو أن حالة الفراغ المعياري و القيمي التي ميزت تلك المرحلة, قد سمحت بظهور أشكال و أنواع لا حصر لها من الانحراف الفكري و السلوكي لدى الشباب, و يمكن تلمّس هذا الواقع داخل المجتمع الحالي من خلال عدة ظواهر واضحة, و لتحديد واقع الأنوميا الذي تتخبط فيها مجتمعاتنا ومؤسساتها بشكل مبسط – استنادا إلى النظرية العامة للأنومي–, يمكن أن نشير إلى ثلاثة أسس عامة تتسبب في انتشاره وتعزيزه فى الواقع المجتمعى:

أولا: إن الأهداف والطموحات التي يسعى إليها الفرد الحالي وخاصة الشاب، أصبحت لا تتناسب أوتتوافق مع القدرات والمقومات السياسية، الاجتماعية، الثقافية والاقتصادية الحالية القائمة فى المجتمع، وهو ما سبب فى وجود هوة واضحة بين الشاب الذي رضع من العولمة وتأثر بثوراتها وقيمها، وأبعاد الواقع المجتمعي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

ثانيا: إن المعايير الاجتماعية التي كان يُفترض بها أن تحكم مسيرة الأفراد وخاصة الشباب لتحقيق أهدافهم وطموحاتهم وفق قدراتهم ومؤهلاتهم، أصبحت شبه غائبة في المجتمع، وهو ما أفسح المجال لسيطرة منطق اللامعيارية والفوضى الناتجة عن فقدان الثقة في القوانين المنظمة لسلوك المجتمع ومؤسساته ورموزه الثقافية وغيرها، والشك غير المبرر فى قدرات الآخرين فى المجتمع وقدرات مؤسساته وأدوات ووسائل تحقيق طموحاته.

ثالثا: إن الوسائل المؤسساتية التي يضعها النظام الاجتماعي, من أجل تمكين الأفراد من تحقيق طموحاتهم, صارت – على العموم – أكبر خصم للطاقات الخلاقة والبناءة والكفاءات الحقيقية, ذلك أن هذه المؤسسات ظلت لعقود تعاني من مشاكل البيروقراطية أولا, ثم إن حالة اللامعيارية التي مر بها المجتمع قد أوجدت منظومة مشوهة, تسير وفق قيم غير سوية, تسمح في العادة للعناصر السلبية أو الانتهازية أو غير الكفئة بالوصول إلى تلك المواقع, وهو ما يؤدي بالمقابل إلى تشكل نوع من البيئة الضاغطة أو المهمّشة أو العدائية تجاه العناصر الإيجابية, التي تتمتع بقدر من الكفاءة والمستوى الراقي والتناغم مع المتطلبات العصرية, التي يمكن لها إحداث الفرق في بناء الدولة والمجتمع على السواء, وهو ما يُعطينا أحد التفاسير الكثيرة عن الوتيرة البطيئة للتطور السياسي والاقتصادي والعلمي والثقافي.....الخ

نلاحظ إذن أن حالة الفوضى والفكر الصراعي التي تميز مظاهر حياة الإنسان اليومية وعلى جميع الأصعدة, تؤشر إلى حالة التشوّه والتفتت التي يعانيها البناء الاجتماعي ككل, فالمنظومة المعيارية أضحت عاجزة بشكل مُقلق عن قيادة الأفراد إلى أماكنهم المناسبة في المجتمع بالطرق

السليمة, وهو ما يعزز أكثر فأكثر حالة عدم التوافق والاغتراب داخل المجتمع والإحباط, التي تعزز بدورها مجموعة التصورات والقيم التي لا تزال تأخذ مكانها بقوة في الوعي الجمعي للمجتمع, وهي قيم غير مرغوبة, ولكنها تلقي بثقلها الشديد لتصوغ شكلا محددا من العلاقات الإنسانية داخل المجتمع, يتسم بسلوكيات منحرفة, تسيطر عليها قيم سلبية كقيم استغلال القوة والنفوذ والسلطة للهيمنة, أو الاحتيال على القانون والغش وثقافة الرشوة وغيرها, كطرق وأساليب غير مشروعة لتحقيق الأهداف والطموحات المشروعة لدى مختلف الشرائح.

إن الانتشار المقلق لمظاهر الإجرام والسرقة والاعتداءات وقطع الطرق وكثرة الاحتجاجات، وانتشار الأمراض العقلية والعصبية، ومظاهر الهجرة غير الشرعية وهروب الأدمغة والكفاءات نحو الخارج، وأزمة الانحلال الخلقي والفساد، كلها مظاهر لا يمكن تفسيرها بالرجوع إلى الظروف الاجتماعية فحسب، فهذه الظواهر تولد حالة الضغط والإحباط الشديد التي يواجهها الشباب بسبب أزمة اللامعيارية، والتي جعلته هو الآخر يتخلى عن مجموعة التصورات الأخلاقية والمعايير التي يخضع لها سلوكه، في إطار البناء الاجتماعي العام.

إننا اليوم مجتمع أنومي بامتياز, وبأن كل مواطن مهما كانت مكانته أو مستواه هو إنسان أنومي بشكل من الأشكال وبمستوى من المستويات, وأن التحدي الأكبر يكمن في شجاعة الاعتراف بهذا الواقع وعدم التسليم والرضوخ له, ليعمل كل فرد من أجل إصلاح الذات قبل الصراخ بإصلاح المجتمع ومؤسساته, حيث ينادى الكثيرمن الأفراد صائحين بإنقاذ الوطن وإصلاح أمور المجتمع, بينما سلوكياتهم اليومية لا تعكس الوطنية أو الوعي الاجتماعي, وفى المقابل نرى شبابا من مختلف الفئات والمستويات, يقاومون بشدة مظاهر الانحراف والفساد المنتشرة انطلاقا من أنفسهم, معتمدين في ذلك على مبادئهم الأخلاقية.

الشباب من ثقافة التدرج التراكمى العقلانى لثقافة السرعة المذهلة اللاعقلانية:

إن الشباب بحكم عمره الزمنى والعقلى وميله الشديد للتقليد والمحاكاة وتأثره بالتغيرات العالمية الجديدة تلك التى أحدثت سرعة مذهلة غير متوقعة فى كثير من مناحى الحياة الانسانية وإمتدت لوقائع الحياة اليومية ، –إنها حضارة وثقافة جديدة تتسم بالسرعة المذهلة – وكذلك الثقافة القومية بكل روافدها حتى أضحت السرعة المذهلة فى كل شىء – مثال ذلك الموسيقى والأغانى وسرعة تبادل المعلومات من خلال الميديا ووسائل الاتصالات – وامتد لنمط الحياة اليومية كالطعام – ومن ساهمت الميديا والانترنت كثيرا فى سرعة نقل الثقافات خاصة الغربية ووجد الشباب نفسه أمام ثقافة تمثل حضارة كونية سائدة تغزو العالم ببريقها وتتميز بالسريعة فى ايقاعها فراح يقلدها، وانعكس على ثقافته السريعة فى كل شىء حتى حب التملك، إنه يريد أن يحقق طموحاته وأحلامه بسرعة مذهلة اكتسبها من الثقافة الوافدة والتى تغاير ثقافة التدرج التراكمى العقلانى فى

ثقافته القومية ، إنه يريد كل شيء فى أقصر وقت ممكن حتى لوتعارض ذلك مع قدراته وامكاناته، مما ينعكس على شعوره المتنامى بالأنومي واللامعنى إذا لم تتحقق طموحاته بالكم والكيفية والسرعة التى يتصورها إنه عالم الغزو الثقافى والأنوميا اللاعقلانى.

ما الهوية؟

الهوية هو مصطلح يستخدم لوصف مفهوم الشخص وتعبيره عن فرديته وعلاقته مع الجماعات كالهوية الوطنية أوالهوية القومية أو الهوية الثقافية، وجاء مصطلح الهوية في اللغة العربية من كلمة هو. والهوية هي مجمل السمات التي تميز شخصا عن غيره أو مجموعة عن غيرها. كل منها يحمل عدة عناصر في هويته. عناصر الهوية هي شيء متحرك ديناميكي يمكن أن يبرز أحدها أو بعضها في مرحلة معينة وبعضها الآخر في مرحلة أخرى، ومن ثم فعناصرها حركية متغيرة غير متكافئة فى الحركة والظهور والأولوية.

الهوية الشخصية الذاتية تعرف شخصا بشكله واسمه وصفاته وجنسيته وعمره وتاريخ ميلاده وثقافته بكل ماتحمله الثقافة من معنى حتى الملبس والأدوات واللهجة. بينما الهوية الجمعية وطنية أو قومية تدل على سمات وميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر تميزهم عن الآخرين ثقافيا وكل مناحى حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية حتى بيلوجيا وسلالاتهم وأصولهم الانحدارية، ويتشابه أفراد المجموعة فى السمات والميزات الأساسية التي كونتهم كمجموعة، وربما يختلفون في عناصر أخرى لكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة. فما يجمع الشعب المصرى مثلا هو وجودهم في وطن واحد ولهم تاريخ طويل مشترك، ومواطنة واحدة، وتراث حضارى وثقافى مشترك وأصول عرقية وسلالات مشتركة وغيرها من العناصر، كل هذا يجعلهم شعبا متمايزا عن غيرهم من باقى شعوب المعمورة.

ومن أهم العناصر التي تبلور الهوية الجمعية اشتراك الشعب أو المجموعة في: الأرض، اللغة، التاريخ، الحضارة، الثقافة، والسلالات والطموح وغيرها سواء موقع جغرافي و ذاكرة تاريخيّة وطنية مشتركة وثقافة شعبيّة موحّدة وحقوقٌ وواجباتٌ مشتركة واقتصاد مشترك ،وتؤدى التغيرات المجتمعية لاهتزاز عنصر أو أكثر من هذه العناصر مما يؤثر سلبا على الهوية الوطنية أو القومية ، كما أن قوة وسرعة هذه التغيرات يرتبط حتما بدرجة وقوة اهتزاز مثل هذه العناصروالهوية الوطنية أوالقومية، وقد أدى الغزو الثقافى للرأسمالية والتكنولوجيا الحديثة خاصة فى الاتصالات والمعلومات والميديا إلى بلورة الهوية العالمية وهى هوية كونية باعتبار العالم قرية واحدة ومن ثم تتصارع الهويتين القومية كالهوية العربية والعالمية كعائد للثورة الكونية ويجد فئات المجتمع أنفسهم أمام ثقافتين وهويتين متصارعتين فيفقدالثقة ويشعر بالاغتراب واللامعنى ويتسم

بالنومى كظاهرة حتمية احدثتها التغيرات الكونية سريعة الوتيرة والتلاحق، حيث تعبر الهوية عن الواقع بكل أبعاده المختلفة وتنسجم معه

إن الهويّة ترتبط بالوعي بالذّات الثقافيّة والاجتماعيّة، فذات الانسان هى هويته الذاتية أو الشخصية، وللهوية عناصر ثابتة وأخرى متغيرة فالموقع الجغرافى واللغة مثلا من الثوابت لايمكن تغيرها بينما توجد عناصر توصف بأنها متغيرة غير ثابتة، وتصاب بالتحول والاهتزاز طبقا لدرجة وسرعة تغير وتحوّل الواقع المجتمعي بأبعاده المختلفة، ومن ثم فهي الخصوصيّة والذّاتيّة وهي ثقافة الفرد ولغته وعقيدته وبنائه وشكله الجسمانى البيولوجى وحضارته وثقافته وقيمه ومعاييره وتاريخه. الهويّة جزء لا يتجزّأ من منشأ الفرد ومكان ولادته، وتشتق الهويّة في اللّغة من الضّمير هو والاتحاد بالذات. ووعاء ومحتوى الضّمير الجمعي لأيّ تكتّل بشريّ، بما يشمله من قيم وعاداتٍ ومقوّمات تكيّف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها.

ويشير التاريخ البشرى لعدد من الهويات القومية أو الوطنية تطورت بشكل طبيعي عبر التاريخ وعدد منها نشأ بسبب أحداث أو صراعات أو تغيرات تاريخية سرعت في تبلور المجموعة، بينما تبلور جزء من الهويات على أساس النقيض لهوية أخرى، ويوجد تيارات عصرية تنادي بنظرة حداثية إلى الهوية وتدعو إلى إلغاء الهوية الوطنية أو الهوية القومية والانخراط فى الهوية العالمية باعتبار التغيرات والثورة كونية والعالم قرية واحدة ، وأعتقد أن ذلك لم ولن يحدث مستقبلا فى إطار القوميات والشعوب والتراث الحضارى والثقافى الذى يميز الأمم والشعوب ليس ثقافيا وفكريا فقط ولكن بيلوجيا كذلك.

الهوية والأيديولوجية:

تعبر الأيديولوجيا عن وقائع الفكر القومى والثقافة الوطنية السائدة، وأنسب فكر أيولوجى في أى مجتمع هوذلك المرتبط إرتباطا عضويا قويا بالبعد الفكرى الثقافى القائم فى المجتمع بكل روافد الثقافة وماتحمله من معنى، ذلك الفكر الذى أجمع عليه الأفراد والوطن والأمة وتم بنائه عبر تاريخ مجتمعى طويل إنه يحدد إلى حد كبير الهوية المجتمعية وهوية مواطنيه كميراث ثقافى يميزالمواطنين ومجتمعهم.

ومن ثم ترتبط الهوية بالأيديولوجية ارتباطا جوهريا وأى تغير أو اهتزازأو خلل أو غزو يصيب أحدهما يؤثر بالتالى فى الآخر وينعكس على المواطنين وخاصة الشباب وطموحاتهم.

فالمجتمع المصرى أيديولوجيا حاول تبنى الرأسمالية قبل ١٩٥٢ولكنه لم يكن راسماليا لأن وقائع المجتمع لم تفرز تلك الراسمالية التى أضحت متوحشة فيما بعد وبعد ١٩٥٢ حاول أن يكون اشتراكيا فى أيديولوجيته ولكنه أيضا لم يكن كذلك ولنفس السبب وحاول العودة بعد ذلك

للرأسمالية ولكنه لميكن أيضا كذلك ولنفس السبب وأضحت الراسمالية متوحشة وبعد ٢٠١١ حاول أن يكون ديمقراطيا ولكن تحولت لفوضى ولنفس السبب أيضا ، إنها تجارب ايديولوجية عامضة تعكس بلاشك التذبذب والخلل الأيويولوجى مما يترتب عليه بالضرورة تشوشا وتشوها فى الهوية القومية بكل متغيراتها.

الصراع بين الهويتين القومية والعالمية فى عالم متغير:

إن الصراع دائما لصالح الأقوى والهوية العالمية تتمحور فى الهوية الكونية التى أحدثتها العولمة وما سببته من تغيرات كونية، ويمكن تحليل الصراع التصادمى بين الهويتين القومية والعالمية فى عالم متغير من خلال المتغيرات التالية:

الميديا والصراع الثقافى:

تثير وسائل الاتصال الحديثة بزعامة شبكة الانترنت مشكلات متعددة معرفية وعملية.

ولعل أهم هذه المشكلات هو تضارب الآراء حول الآثار الإيجابية والسلبية لهذه الوسائل الجديدة.

فهل صحيح– كما يذهب عديد من أنصار الثورة الاتصالية– أن العالم أصبح أكثر شفافية بفضل شبكة الانترنت وما تتيحه من إمكانات الحوار المفتوحة بين البشر من كل أنحاء العالم، أم أن الوضع على العكس من ذلك، حيث لم تؤد العولمة الاتصالية إلى الشفافية المطلوبة، بحكم الحواجز والقيود المختلفة التى تمنع فئات عريضة من البشر لا تستطيع النفاذ إلى شبكة الانترنت، ولا الاستفادة من جميع المواقع على الشبكة، لأن عدداً كبيراً منها أصبح مثل النوادى المغلقة، لا يسمح للغرباء بدخولها إلا إذا دفعوا الثمن.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن المرحلة التاريخية الراهنة تتسم بصراع ثقافى واسع المدى بين أطراف متعددة ومختلفة، حاول كل طرف أن ينتج خطاباً يهيمن فيه على الآخرين، سياسياً واقتصادياً وثقافياً، لأدركنا صعوبة الإبحار فى محيطه، شبكة الانترنت بغير منهج تحليلى مرهف، ورؤية نقدية بصيرة.

والمتتبع لهذا الصراع الثقافى سيدرك أنه يدور فى مجالات قديمة وإن كان بأساليب مستحدثة، أبرزها الصراع الأيديولوجى حيث تحاول الرأسمالية المعاصرة باسم العولمة أن تجعل خطابها لكل ما يتضمنه من حقائق وأساطير أن يكون هو الخطاب السائد، فاللبرالية هى المبدأ السياسى المعتمد، وحرية التجارة ورفع كل القيود أمامها هى المبدأ المقدس، والتنافس العالمى فى ظل وهو الندية الكاملة بين جميع الدول لا فرق بين المتقدمة منها والنامية هو الفلسفة الجديدة.

غير أن هناك مجالات جديدة يدور فيها الصراع الثقافى باسم الخصوصية الثقافية التى تحاول الوقوف ضد موجات العولمة المتدفقة، وبعض هذه المحاولات ينطلق من مبادئ مشروعة تريد

تأكيد حق الهويات الثقافية المختلفة أن تعيش وتحيا وتزدهر فى عصر العولمة، بدلاً من الدعوات البدائية لتنميط وتوحيد أساليب حياة البشر وفق قيم الحضارة الغربية.

غير أن هناك فى المجال محاولات تنطلق من رؤية مغلقة للتاريخ، لا تؤمن بالتقدم الإنسانى، وتريد إقامة أسس المجتمع المعاصر فى ضوء الارتداد إلى مرجعيات الماضى، من خلال اتجاه انعزالى يظن أنه يستطيع أن يحمى الثقافة والمجتمع من مفاسد العولمة حلبات الصراع الثقافى الكونى على شبكة الإنترنت ذاتها دعوات الإحياء الثقافى الأصيلة، مع نزعات الرجعية السياسية والمحافظة الثقافية.

غير أنه يمكن القول أن الصراع الثقافى الدائر على شبكة الإنترنت ليس أحد مظاهر الثورة الاتصالية الحديثة، غير أن لهذه الثورة آثاراً اجتماعية ونفسية وثقافية ومعرفية بالغة الأهمية وتستحق منا أن نقف أمامها بالدراسة والتحليل. ولعل أبرز هذه الآثار ما يتعلق بالممارسات التى تتم فيما يطلق عليه الواقع الافتراضى أو الظاهرى.

فقد أصبح اليوم ممكناً – بفضل شبكة الإنترنت – أن ينعقد مؤتمر يضم ثلاثمائة أكاديمى لمناقشة أحد الموضوعات السياسية أو الاقتصادية كحركة "الطريق الثالث" على سبيل المثال دون أن يجتمعوا بالفعل. وذلك عن طريق دعوة على شبكة الإنترنت من جامعة معينة ولتكن فى انجلترا أو فرنسا للعلماء الراغبين فى تسجيل أسمائهم فى المؤتمر عن طريق البريد الإلكترونى – بأبحاثهم فى الموضوع المحدد حسب اختيارهم وهذه الأبحاث ستنتشر على الشبكة وسيتم النقاش والحوار حولها، أى أن يصل المؤتمر إلى أى دولة فى العالم، ومن هنا قد نجد فى مثل هذا المؤتمر الافتراضى إسهامات من الصين والهند واليابان، بالإضافة إلى الإسهامات الأوربية والأمريكية.

نحن نعيش إذن فى عالم جديد يقف فيه الواقع الافتراضى جنباً إلى جنب بجانب الواقع الحقيقى لدرجة أنه يمكن القول أن هذا الواقع ليس هو الواقع غير المادى أو غير الملموس، ولكنه واقع جديد لا يقل أهمية عن الواقع الحقيقى.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن – وفق بعض التقديرات – قوة العمل من خلال وسائل الاتصال الحديثة بمعنى عدم ضرورة توجههم كل يوم إلى مكان العمل، لن تقل عن نسبة ٢٠% لأدركنا أى تغيير عميق سيصيب العمل الإنسانى ونوعية الحياة اجتماعية ذاتها.

وفى مجال التعليم، عن بعد، سيصبح هو بفضل وسائل الاتصال الحديثة، وسيلة التعليم، التى يمكن أن تتلاقى سلبيات وسائل التعليم التقليدية، ومن ناحية أخرى، فإن لوسائل الاتصال الحديثة آثاراً بالغة العمق فيما يتعلق بالجوانب المعرفية للإنسان، فعمليات مثل التدريب والتذكر والنشاط البحثى لن تتعامل بعد الآن مع معرفة متغيرة ومتجددة ولكنها ستتعامل مع معرفة متغيرة ومتجددة فى كل لحظة مما سيجعل هذه العمليات بذاتها تسهم فى المعرفة الجديدة، وهذه المعرفة الجديدة

سيتم استخلاصها من ركام ضخم من العمليات المتناثرة والمفتتة، وهذا الواقع يدعو إلى القيام بثورة تعليمية تؤدى إلى تشكيل العقلية التحليلية والنقدية، القادرة على الربط الذكى والفعال بين هذه العمليات المتناثرة، وصياغتها فى شكل خطاب معرفى متصل.

ومن هنا فوجهة النظر التى تظن أن شبكة الإنترنت تحوى مضامين المعلومات، تستطيع أن يأخذ منها ما شاء، تعقد عن فهم أهمية الانتقال من المعلومات إلى المعرفة. ومن أهمية الالتفات إلى أننا نعبر الآن من مجتمع المعلومات العالمى إلى مجتمع المعرفة العالمى من خلال جسور التحليل والنقد والتركيب، ومن هنا أصبح الاتجاه الآن إلى تشكيل مجتمعات المعرفة، التى تقوم على اقتصاديات المعرفة والتى لا تقنع بالمعلومات وإنما ترتقى بها من خلال أدوات شتى إلى مستوى المعرفة الراقية والفعالة والمنتجة.

شراء المعلومات والغزو الاتصالى:

وإذا كنا قد عرضنا الجوانب المشرقة من الثورة الاتصالية الكبرى إلا أن هذا قد يحمل على الظن بأننا بصدد يوتوبيا أو مدينة فاضلة تكنولوجية يتاح فيها لكل أنماط البشر بغير تفرقة على أساس الجنس أو اللون أو الدين أن يتفاعلوا معاً وينعموا بالثمار من خلال تنوع المعلومات، والمعارف الإنسانية التى لا حدود لها.

غير أن بعض الباحثين البارزين ومن أهمهم (جيروم) عالم الاجتماع الفرنسى يذكرنا بالجانب المظلم فى الصورة ويقرر:

أن هناك فى العالم المعاصر ٦٠٠,٠٠٠ مدينة وقرية تفتقر إلى الكهرباء تضم نحو بليونى إنسان

ومن هنا السؤال: ماذا تعنى الوسائل الاتصالية الحديثة بالنسبة لهم؟

وهناك أيضاً ٨٠% من سكان العالم ليست لديهم الوسائل الأساسية للاتصالات السلكية واللاسلكية.

وتؤثر الميديا بصورة الحديثة كذلك على ازدواجية القيم والثقافة بين من لديهم القدرات الاتصالية ويفتقرون إليها معرفياً أو لعدم قدراتهم المادية.

الميديا والمتغيرات الثقافية الإيجابية:

إن التطورات الهائلة فى مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات قد احتوى بين ثناياه بعض التغيرات الثقافية الإيجابية التى يمكن رصدها فى النقاط التالية:

تعاظم قدرة المتلقى الفرد على تجاوز الدائرة الضيقة للإعلام الوطنى فى ظل الثورة التكنولوجية للاتصال المرئى – وإتاحة فرصة التفاعل مع عدد متكاثر من محطات البث الفضائى التلفزيونى، يتنوع فيها اللغات واللهجات والثقافات بما يلبى جميع الاحتياجات الاتصالية لمتلقيها، أو مستوى تنافسى عال.

اتساع مساحة الحرية المتاحة أمام المتلقى وتزايد قدرة القنوات الفضائية غير الحكومية على مناقشة جميع القضايا بطرح الرأى والرأى الآخر، بحيث صارت تلك القنوات ساحات للممارسة الديمقراطية التى تفتقرها على مستوى الواقع أغلب دول الجنوب.

وعلى مستوى الاتصال الشخصى، فإن ظهور شبكة الإنترنت وانتشارها عالمياً قد فتح هو الآخر مجالات لا حدود لها لمعرفة واكتساب المعلومات بجانب ما وفرته من سهولة الاتصال قليل التكلفة والمعلومات المتنوعة، والمعارف الإنسانية التى لا حدود لها.

الانفتاح على الثقافات الأخرى وعدم الانغلاق ولكن يجب أن يكون انفتاحاً واعياً.

الميديا والشخصية التنموية: تؤثر الميديا فى بناء وإيجاد الشخصية التنموية فى بعض جوانبها المعرفية والثقافية كالشخصية المعرفية المنفتحة على الثقافات والمعارف الأخرى، ولكنها شخصية متصارعة قيمياً بين قيم مجتمعية وأخرى مكتسبة، وبذلك فقد تكون شخصية تعتمد على التقليد والمحاكاة أكثر من ارتباطها بالواقع المجتمعى وذوبان الثقافات الوطنية فى إطار الثقافة الغربية بمفاهيمها وقيمها ورؤياها، الأمر الذى قد يؤدى إلى تشويه تلك الثقافات ونفى هويتها القومية فى نهاية الأمر.

وتؤثر الميديا كذلك فى الوعى والإدراك الاجتماعى الفردى والمجتمعى واللغة والدين والسلوك والهوية والانتماء والشخصية فى المجتمع الواحد من خلال تباينات شتى فى إدراك هذه الأبعاد والوعى بدرجة تأثيرها.

ونعتقد بأنه لا يمكن أن يكون هناك وعياً وإدراكاً كونياً لثقافة واحدة للمجتمع العالمى كمجتمع واحد بأى حال من الأحوال. فتيارات الميديا والعولمة ليست متجانسة وتغزو كذلك مجتمعات عالمية غير متجانسة.

ويجب مقابلة ما تحدثه الميديا من آثار بشخصية تتسم بروح الاقتحام والاكتشاف، والتى يمكنها أن توظف نفس قنوات الميديا وما أتاحته من فرص وطرق اتصال ليضخ إليهم أحسن ما نملك من ثقافة وقيم وسلوك وذلك بروح التحدى والإصرار.

التغيرات العالمية ثورة كونية:

تعتبر العولمة منهجا فكريا، فهى بالتالى تشكل نمط الحضارة لها مكوناتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وإذا سلمنا بان العولمة، هى فرض نمط من أنماط الحضارة على باقى الأمم والشعوب، لأيقنا أن القضية هى قضية حضارية.

فالعولمة ليست مؤامرة يقودها الغرب، بل هى تداعيات تاريخية، أفضت إلى واقع نعيشه اليوم ونتعايش معه، فرواد العولمة يعتقدون أن العولمة هى أفضل ما وصل إليه الإنسان من النظم،

فهم بالتالى يسعون إلى فرضها على باقى الأمم طالما تحقق لهم المصلحة وتمكنهم من بسط سيادتهم على الآخرين.

الامتزاج الحضارى:

يعد هذا المفهوم أكثر واقعية من حوار الحضارات أو صدام الحضارى بثلاث مراحل متتابعة مرحلة الحوار الحضارى فمرحلة الصدام، وأخيرا مرحلة الامتزاج الحضارى.

حيث تؤدى العولمة بطبيعتها إلى امتزاج الثقافات لا الصدام بينها أو حتى مجرد الحوار بين هذه الثقافات التى تنتقل من ثقافة الحضارة المهيمنة الأكثر قوة إلى ثقافة الحضارات الأقل قوة ممتزجة ومتفاعلة معا، وغالبا ما تكون ثقافات مختلطة بعيدة عن الثقافة المهيمنة أو حتى المحافظة على الهوية الثقافية الوطنية، وينتج تفكك وتشتت ثقافى فى المجتمع يصعب معه صنع سياسات رعاية اجتماعية واقعية ترتبط بهذه الثقافات من ناحية، كذلك يصعب تحقيق أهداف سياسات الرعاية الاجتماعية من ناحية أخرى فى بناء وتنمية الإنسان فى المجتمع.

ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، بل ثقافات...

إننا نقصد ب "الثقافات" هنا ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التى تحتفظ لجماعة بشرية تشكل أمة ما فى معناها بهويتها الحضارية فى إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء وبعبارة أخرى: إن الثقافة هى المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغى أن يعمل وما لا ينبغى أن يأمل .

تلزم عن هذا التعريف، لزوما ضروريا النتيجة التالية وهى أنه ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد فى يوم من الأيام، وإنما وجدت وتوجد وستوجد ثقافات متعددة متنوعة تعمل كلا منها بصورة تلقائية، أو بتدخل إرادى من أهلها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة، ومن هذه الثقافات ما يميل إلى الانغلاق والانكماش، ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع ومنها ما ينعزل حينا وينتشر حينا.

ويستلزم ذلك أهمية الحفاظ على الهوية الثقافية ودراسة وتحديد الشخصية التنموية فى المجتمع ومقوماتها بأبعادها الثقافية المختلفة، وأهمية التصدى لتيارات الثقافة الوافدة والتى تؤثر على البعد الثقافى للتنمية فى المجتمع، والاختراق الثقافى لثقافة المجتمع والذى يؤدى بدوره إلى اختفاء قيم وثقافات مدعمة لعملية التنمية فى المجتمع، والأدوات والوسائل المشروعة والمقبولة إجتماعيا لتحقيق الغايات والطموحات.

الهوية الثقافية مستويات أربع:

فردية وجمعوية ووطنية قومية وعالمية، والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساساً بنوع "الآخر " الذى تواجهه إن الهوية الثقافية كيان بصير يتطور، وليست معطى جاهزا ونهائيا. هى تسير وتتطور إما فى اتجاه الانكماش، وإما فى اتجاه الانتشار، وهى تغتنى بتجارب أهلها ومعاناتهم، انتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضا باحتكاكاتهم سلبا وإيجابا مع الهوايات الثقافية الأخرى التى تدخل معها فى تغاير من نوع ما.

وعلى العموم تتحرك الهوية الثقافية على ثلاث دوائر متداخلة ذات مركز واحد: فالفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية (حزبا أو نقابة...الخ) هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة، عبارة عن "أنا" لها أخر داخل الجماعة نفسها "أنا" تضع فى مركز الدائرة عندما تكون فى مواجهة مع هذا النوع من "الآخر".

والجماعات داخل الأمة، هى كالفرد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزه داخل الهوية الثقافية المشتركة ولكل منها "أنا" خاصة بها و"آخر " من خلاله تعبر وتتعرف على نفسها بوصفتها ليست إياه.

والشئ نفسه يقال بالنسبة إلى الأمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى، غير أنها أكثر تجريدا وأوسع نطاقا، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف.

هناك إذن ثلاثة مستويات فى الهوية الثقافية لشعب من الشعوب: الهوية الفردية والهوية الجمعوية والهوية الوطنية (أو القومية) والعلاقة بين هذه المستويات ليست ثابتة، بل هى مد وجزر دائمين بتغيير مدى كل منها اتساعا وضيقا، بحسب الظروف وأنواع الصراع واللاصراع، والتضامن واللاتضامن، والتى تحركها المصالح الفردية والجمعوية والمصالح الوطنية والقومية.

وبعبارة أخرى إن العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع "الآخر" بموقعة فان كان داخليا، ويقع فى دائرة الجماعة، فالهوية الفردية هى التى تفرض نفسها كـ "أنا" وإن كان يقع فى دائرة الأمة فالهوية الجمعوية (القبلية، الطائفية، الحزبية... الخ) هى التى تحل محل "الأنا الفردى" أما إن كان "الآخر" خارجيا (أى يقع خارج الأمة والدولة والوطن) فان الهوية الوطنية – أو القومية هى التى تملأ مجال "الأنا"

لا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعيتها إجماع الوطن والأمة والدولة:

لا تكتمل الهوية الثقافية، ولا يبرز خصوصيتها الحضارية ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعيتها فى كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن، والأمة، والدولة، هذه المرجعية تجعلها مقبولة ويتوافق الأفراد ويلتزمون بثقافاتها ويتقبلون الضوابط المجتمعية الرسمة وغير الرسمية.

ثقافة الاختراق تقوم على جملة أوهام هدفها:

"التطبيع" مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضارى .

حيث تتولى القيام بعملية تسطيح الوعى، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، ثقافة جديدة تماما لم تشهد التاريخ من قبل لها مثيلاً: إشارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكى (الإشهار التجارى) والرأى السياسى (الدعاية الانتخابية) وتشييد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ، إنها "ثقافة الاختراق" التى تقدمها العولمة بديلا عن الصراع الأيديولوجى.

نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع إلى التفتيت والتشتيت.

ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة، أو يغرقهم فى أتون الحرب الأهلية.

ومع التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضارى يأتى فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، من دون أمة من دون وطن، إنه عالم المؤسسات والشبكات العالمية، عالم الفاعلين وهم المسيرون "والمفعول بهم" وهم المستهلكون للسلع والصور والمعلومات والحركات والسكنات التى تفرض عليهم أما وطنهم فهو الفضاء المعلوماتى الذى تصنعه شبكات الاتصال، الفضاء الذى يحتوى يسيطر ويوجه الاقتصاد والسياسة والثقافة.

العولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن نظام يريد رفع الحواجز والحدود أمام الشبكات والمؤسسات والشركات المتعددة الجنسية، وبالتالى إذابة الدول الوطنية وجعل دورها يقتصر على القيام بدور الدركى لشبكات الهيمنة العالمية، والعولمة تقوم على الخصوصية، أى على نزع ملكية الوطن والأمة والدولة، ونقلها إلى الخواص فى الداخل والخارج، وهكذا تتحول الدولة إلى جهاز لا يملك ولا يراقب ولا يواجه، وإضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لقيادة العولمة يؤديان حتما إلى استيقاظ وإيقاظ أطر للانتماء سابقة على الأمة والدولة، أعنى القبيلة والطائفة والجهة والتعصب المذهبى... الخ والدفع بها جميعا إلى التقابل والتناحر والإفناء المتبادل والى تمزيق الهوية الثقافية الوطنية القومية.. إلى الحرب الأهلية.

ولا بد من التأكيد هنا على أن مفهوم الهوية الثقافية القومية هنا بمعنى الهوية المشتركة لجميع أبناء العرب من المحيط إلى الخليج لا يعنى قط إلغاء ولا إقصاء الهوايات الوطنية القطرية ولا الهوايات الجمعوية، الإثنية والطائفية، إنه لا يعنى فرض نمط معين على الأنماط الثقافية الأخرى،المتعددة والمتعايشة، عبر تاريخنا المديد داخل الوطن العربى الكبير، كلا إن التعدد الثقافى فى الوطن العربى واقعة أساسية لا يجوز القفز عليها، بل بالعكس لا بد من توظيفها بوعى فى إغناء وإخصاب الثقافة العربية القومية وتوسيع مجالها الحيوى، ولكن تبقى مع ذلك كله الوظيفة التاريخية لهذه الثقافة، وظيفة التوحيد المعنوى، الروحى والعقلى، وظيفة الارتفاع بـ "الوطن العربى" من مجرد رقعة جغرافية إلى وعاء للأمة العربية لا تكون إلا به ولا يكون إلا بها،

هذه من جهة ومن جهة أخرى فاللغة المشتركة بين أبناء الأمة العربية لغة التراث المشترك ولغة العلم والثقافة العالمة جملة، بالتالى لغة التحديث والحداثة، هى اللغة العربية ولذلك كانت اللغة العربية هى فى أن واحد الرابطة المتينة التى توحد بين مستويات الهوية فى الوطن العربى، أعنى المستوى الفردى والمستوى الجمعوى الوطنى والقومى، والأداة الوحيدة التى يمكن بها العرب الدخول فى العالمية وتحقيق الحداثة.

الثنائية والانشطار فى الهوية الثقافية:

أدت العولمة دورا سلبيا فى تكريس الثنائية والانشطار فى الهوية الثقافية القومية ، فكلنا نعرف الثقافة العربية تعانى منذ ما يقرب من قرنين، وضعا متوترا نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية بتقنياتها وعلومها وقيمها الحضارية التى هى نتيجة تطور خاص قوامه التحديث والحداثة، تطور لم تعشه الثقافات العربية، بل بقيت بمعزل عنه تجتر وضعا قديما توقف عن النمو منذ قرون.

ومن هنا تلك الثنائية التى تطبع الثقافة بمختلف مستوياتها المادية والروحية، ثنائية التقليدى والعصرى، وهو ثنائية تكرس الازداوجية والانشطار داخل الهوية الثقافية بمستوياتها الثلاثة أحد طرفى هذه الثنائية الهوية الثقافية على صورة "جمود" على التقاليد ضمن قوالب ومفاهيم وآليات دفاعية تستعصى اكتساحا ليتحول إلى ثقافة الاختراق، وهى الثقافة المباشرة به المكرسة له.

استنتاجات ختامية:

إن الهوية القومية فى عالم مضطرب والشباب أكثر الفئات المجتمعية تأثرا بهذا الاضطراب العالمى الذى يؤدى بدورة لتشويش الهوية لديهم حيث يعكس الواقع غموضا للهوية وتباينا أيديولوجيا لايفرزه وقائع المجتمع وتراثه الثقافى الحضارى والبناء الثقافى القيمى فى المجتمع فى مسار وبناء الهوية فى مسار آخر وأيديولوجية المجتمع لايعكس ولا تلتقى مع البناء الثقافى القيمى الحضارى، وكأن العالم ثقافة واحدة مشوهه متعددة فى المجتمعات المستقبلة للغزو الثقافى لثقافات الرأسمالية المتوحشة.

إنه صراع للحضارات والثقافات ينعكس سلبا على الثقافة والهوية الثقافية القومية لدى الشباب والتى أضحت لديهم لاتصنع بريق الحضارة بايقاعها البطىء كما يتصورون وراحوا يقلدون دون وعى ثقافة وهوية المجتمعات أصحاب الحضارة كمثل نموذجى للحضارة الانسانية الأسمى إنه صراع قوميات بثقافاتها وروافدها المختلفة ، غير أن الهوية القومية لايمكن أن تمحى مهما كان قوة الغزو والاختراق الثقافى.

فى هذا الإطار يجب أن نضع خصوصية العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية عندما يتعلق الأمر بالقومية، فالاختراق الثقافى الذى تمارسه العولمة لا يقف عند حدود تكريس الاستتباع الحضارى بوجه عام، بل إنه سلاح خطير يكرس الثنائية والانشطار فى الهوية الوطنية القومية،

ليس الآن فقط بل وعلى مدى الأجيال الصاعدة والقادمة، وذلك أن الوسائل السمعية البصرية المرئية واللامرئية التى تحمل هذا الاختراق وتكرسه إنما تملكها وتستفيد منها فئة معنية هى النخبة العصرية وحواشيها، فهى التى تستطيع امتلاكها والتعامل مع لغاتها الأجنبية بحكم التعليم العصرى الذى تتلقاه أما "هموم الشعب " وعلى رأسه النخبة التقليدية فهو شبه عزلة. يجتر بصورة أو أخرى ثقافة الجهود على التقاليد والنتيجة استمرار إعادة إنتاج متواصلة ومتعاظمة للثنائية نفسها، ثنائية التقليدى والعصرى، ثنائية الأصالة والمعاصرة فى الثقافة والسلوك، وينعكس كل ذلك حتما على تعميق الأنومى والامعيارية لدى الشباب، فكلما زاد الانشطار الثقافى إشتدت الثائية وتعمقت أكثر اللامعيارية والأنومى لدى الشباب، إنها فرضية لعلاقة ثلاثية صحيحة.

أنه ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد فى يوم من الأيام، وإنما وجدت وتوجد وستوجد ثقافات متعددة متنوعة تعمل كلا منها بصورة تلقائية، أو بتدخل إرادى من أهلها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة، ومن هذه الثقافات ما يميل إلى الانغلاق والانكماش، ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع ومنها ما ينعزل حينا وينتشر حينا.

ولايمكن تحليل الظواهر والقضايا والمشكلات الاجتماعية بمعزل عن السياق العالمى المؤثر والموجه وقد يكون سببا حقيقيا فى كثير من الظواهر والقضاي والمشكلات الاجتماعية إنها دائرة تحليلية ضرورية فى إطار التغيرات التى أحدثتها الثورة الكونية بإيقاعها السريع المذهل غير المتوقع.

إن الهوية القومية فى عالم مضطرب والشباب أكثر الفئات المجتمعية تأثرا بهذا الاضطراب العالمى الذى يؤدى بدورة لتشويش الهوية لديهم حيث يعكس الواقع غموضا للهوية وتباينا أيديولوجيا لايفرزه وقائع المجتمع وتراثه الثقافى الحضارى والبناء الثقافى القيمى فى المجتمع فى مسار وبناء الهوية فى مسار آخر وأيديولوجية المجتمع لايعكس ولا تلتقى مع البناء الثقافى القيمى الحضارى، وكأن العالم ثقافة واحدة مشوهه متعددة فى المجتمعات المستقبلة للغزو الثقافى لثقافات الرأسمالية المتوحشة، إنه صراع للحضارات والثقافات ينعكس سلبا على الثقافة والهوية الثقافية القومية لدى الشباب.